الأعمى الذى ارتد بصيرا

للقصصى الانجليزى أدون بو
بقلم نظمى خليل

قيل إنه ولد أعمى فانفرد فى عالم من الظلمة الطاخية منذ اللحظة التى حاول أن يرى فيها وجه أمه بعينيه المظلمتين وقلبه العامر بأشواق الطفولة الجامحة وأسرارها الخفية الغامضة ، ولكن هذه اللعنة التى قضت عليه أن يطوى حياته كلها من المهد إلى اللحد فى ظلام دامس لم يكن قد ورثها عن والديه ، فقد كانت أمه ابنة أحد سراة المزارعين على جانب كبير من الجمال ، زرقاء العينين ، دقيقة القسمات ، قوية التركيب ؛ وكان أبوه شريف الأصل كريم الأرومة لم يعرف فى حياته مثل هذه اللعنة التى حار الناس فى تعليلها والكشف عن حقيقة أمرها

ولكن الحقيقة المؤلمة هى أن صاحبنا كان إحدى هذه الضحايا فلم يشعر يوماً بأشعة الشمس اللينة إلا أنها نوع من أنواع الدفء الطبيعية ، ولم يفهم من الأزهار المتفتحة إلا أنها روائح وعطور!

أما أحبابه فقد طالما استمتع بأصواتهم الرقيقة وجلساتهم المؤنسة وحنانهم الغامر وهم يبللون خده الناعم بدموعهم السخينة الدافقة

لقد كان عالمه الخفى مليئاً بالصعاب التى طالما آذت جسمه وأدمت أطرافه . يزجر بالأصوات المرعبة والصيحات المدوية حتى أن أسنانه كانت تصطك وتتلاصق كلما لمست أطراف أصابعه الحساسة إحدى تلك النتوءات البارزة ، فالنور والظلام ، والليل والنهار ، واللون والشكل ، والأبعاد والنسب ، والجمال والقبح ، كل هذه لم تكن فى نظره إلا كلمات لا يدرك معناها

إذا كان المال عنوان الثروة ، أمكننا أن نعتبر صاحبنا من الأغنياء ؛ إلا أن العطف الذى كان يلقاه من أمه وأخته اللتين عاش معهما كان يفوق كل غنى وثروة ، فقد مات أبوه محطوم القلب ، مكلوم الفؤاد ، لأن آماله قد خابت فى ابنه الوحيد ؛ فنشأ الابن فى أحضان أمه حتى أصبح شاباً منضور الشباب ورجلاً مكتمل الرجولة مع رقة فى الروح وليونة فى الطبع ودماثة فى الخلق

لقد كانت الموسيقى بهجته فى الحياة وسلوته فى المحنة ، تضىء له جوانب نفسه المظلمة وتحمل البلسم إلى روحه الحزينة فى أشد حالات اليأس والألم ، فيغنى على أنغام البيان والقيثار فى صوت شجى مايبدد وحشته ويخفف كربه ؛ وكان صاحبنا ميالاً إلى الأدب كلفاً بالخيال منذ طفولته ، راغباً فى صحبة الإخوان ومجالسة الندمان ، يأخذ بنصيبه فى الشراب والنكتة اللاذعة والضحك الصاخب فى غير تمنع منه أو دفع من غيره

فكانت حياته مزيجاً من المأساة الدامية والملهاة المازحة ، إذ كان سعيداً راضياً ، اللهم إلا عند ما كانت تعاوده تلك الأفكار القديمة فتذكره بمصابه الأليم فينكفئ إلى بيته مهدوم الأركان متداعى البناء .

قضى الشطر الأكبر من حياته فى بيت قديم على الشاطئ يمتع نفسه بموسيقى البحر المتجددة

ونسيمه العليل ؛ يفزع من المدن ويخشى ضجيجها ، فلم يكن لينقاد إلى كل هذه المخاوف والمثيرات . وكان كلما مضى إلى منزل أحس بشعور غريب إذ يشعر أن قدمه ستزل به وأنه سيهوى على وجهه ، أما الشوارع الصاخبة ذات الرائحة الكريهة العفنة ، فقد كانت تؤلمه وتؤذيه وتحمل إلى أذنيه الخائفتين المرتجفتين أشد أنواع العذاب

وكثيراً ما كان يضيق بحياته الراتبة فينفر إلى الجبال الشم الرواسى ، فيجد فى صمتها الرهيب الدائم تسكيناً لأحاسيسه الثائرة المهتاجة ، ولكن هذا الصمت الدائم لا يلبث أن يثقل عليه فيفزع من تلك الوحدة الموحشة ويفر من تلك العزلة المقفرة إذ يشعر أن الأفكار التى تدور فى خلده إن هى إلا أجراس تقرع فى رأسه ! ! فيأمر خادمته أن تعود به إلى البيت القديم حيث يجد فى زئير البحر ورشاش الماء الذى يصافح وجهه ويلامس يديه الهدوء والاطمئنان

هكذا قضى صاحبنا أربعة وعشرين عاماً بعد أن فقد كل أمل له فى رؤية عجائب الأرض والبحر والسماء

لقد جاءوا إليه بأساطين الطب ولكنهم جميعاً وقفوا حائرين أمام هذا المرض العجيب ، وبالرغم من ذلك فقد كان صاحبنا يحتمل كل أنواع العنت والاجهاد التى كان يعانيها فى الفحص والعلاج من أجل أمه وأخته ، وكان يشعر فى قرارة نفسه — وهو الرجل القوى دائماً — أن التشبث بالآمال الكاذبة هو اليأس بعينه ، وأن الاعتراف بالحقيقة والتسليم للواقع راحة للضمير وسلوة

وفى سن الخامسة والعشرين جاءه نبأ ذلك الطبيب الايطالى العظيم الذى شفى كثيرين ممن ولدوا عمياً ، فأرسل فرديناند صديقه ويمان ، وهو طبيب للعيون أيضاً ، ليتحقق مدى صدق هذه الاشاعة . فلما عاد ذلك الصديق تحدث إلى فرديناند عن ذلك الطبيب الشهير « بيرايرا » قائلاً : « إن بيرايرا ليس رجلاً ظريفاً ، إلا أنه ليس دجالاً كما يشيع عنه خصومه وحساده . لقد شاهدت بنفسى ... » ثم مضى يصف تلك المعجزات التى رآها بعينيه ، وهو يرغب فى معالجة فرديناند إلا أنه يشترط لهذا شرطاً واحداً

فتنهدت الأم وقالت : وهو ...

— إنه لا يضمن شفاء فرديناند شفاء تاما إن كان قد ولد هكذا . فامتقع وجه الأم ثم قالت فى صوت متهدج مضطرب : « لقد ولد أعمى »

فقال الرجل : ومع أن « بيرايرا » لم يرَ فرديناند إلا أنه لا يجزم بشفائه . لقد أخبرنى بما أعتقد أنه صواب ، وهو أن شفاء الانسان الذى يولد أعمى أندر ما فى الوجود حتى ليعد من المستحيل . إن فرديناند يستطيع أن يبصر إن كان قد وقع فى تلك المحنة بعد ولادته ببضع ساعات

— إنا لا نعرف بطبيعة الحال ، فأنا نفسى لم أرتب فى تلك الحقيقة المحزنة إلا بعد يومين كاملين من ولادته ، وكنت أتطلع إليه طيلة تلك المدة

— إن بيرايرا يضع نفسه تحت تصرفك ، ومع أنه رجل عظيم إلا أنى أخشى أن يكون نفعياً بعض الشىء . لقد قاسى كثيراً من البؤس والفاقة فيما مضى ، ويخيل إلى الآن أنه يحمل فى جعبته نصف الفكاهة التى تدور على ألسنة المجانين فى هذا العالم ، إلا أن هذه الفكاهة لم تزده إلا مرارة وألماً

— إنى أرحب به على أى حال إذا استطاع أن ينقذ فرديناند . عليك الآن أن تسرع فى طلبه ، فمهما يكن من أمر فإن النتيجة لن تكون أسوأ مما هى عليه الآن

ثم أرسل فى طلب الطبيب ، وأسرعت الأم والأخت إلى تهيئة الشاب لهذا اللقاء المنتظر . فلما دنت الأم من الابن صاح فى صوت حزين مؤثر : « ماذا ؟ أطبيب آخر ؟ كنت أعتقد أنه لم يبق هناك أحد . ولكنه لم يأت الطبيب حتى أسلم إليه نفسه أسبوعين كاملين فى عزم قوى وصبر عجيب

وفى نهاية الأسبوعين خرج الطبيب قائلاً : هناك أمل قوى فى الشفاء . ثم اندفع فى تفاصيل علمية صحيحة لم أعِ منها إلا ألفاظاً قليلة تنم عن ثقته بنفسه ورسوخه فى ذلك العلم ، إلا أنه لم يكن فى كل ذلك بالمتفاخر أو الواثق من النجاح إذ ختم كلامه بقوله : « وأظنك تعذرنى فى هذا . ولكنى أعتقد أنك رجل تستطيع أن تحتمل حقيقة أمرك

— أجل

— تستطيع أن تحتمل شر الصدمات

— أجل ، لقد تغلبت على كثير منها

— إذن أرى لزاماً على أن أفضى إليك بما أعتقد وهو أنى أستطيع أن أعيد إليك بصرك إلا أن هذا قد لا يكون دائماً ، ثم تردد ... فقاطعه فرديناند : نعم ؟

فاستأنف الطبيب كلامه قائلاً : « إنى لا أخفى عنك الحقيقة ، وهى أن هذا الشفاء ربما يكون إلى أجل معين . فهل تستطيع أن تحتمل هذا ؟

— إن هذا ثقيل لاشك ، ولكن يمكننى احتماله

— أتدرى أثر إعادة بصرك لمدة معينة فى نفسك ؟ إنك الآن لا تفهم أثر فقدك لبصرك تماماً ، فانك لا تفكر قط فى فائدة عينيك لك ، ولكنك لو أبصرت فجأة مدة ساعات ، بل قد تكون دقائق معدودات ، ثم عدت إلى حالتك الأولى حيث لا يكون لك أمل فى الشفاء ثانية ... ثم توقف فجأة عن الكلام :

فأجابه فرديناند : إنى مستعد لأية تجربة تجريها علىّ ما دام هناك أمل فى النجاح

— إنه أمل قوى إذا قمت بما أفرضه عليك

— لك علىّ هذا

لقد كان العلاج كثير الألم بطىء السير ، فقد قضى فرديناند ستة أسابيع مستلقياً على ظهره فى غرفة مظلمة داجية ، معصوب العينين وعلى جبينه بعض الأربطة المبللة المشدودة ، وقد حيل بينه وبين الرياضة ، يتبع نظاماً خاصاً من الأكل . ولكنه احتمل هذا الوضع الشاذ المؤلم لا يتحرك ولا يذوق النوم إلا لماما ، فى شجاعة نادرة وصبر عجيب . فلم يشكُ ولم يحاول أن يفلت من العلاج يوماً ، بل لم يتجلَّ نبله ومتانة خلقه إلا فى تلك الأيام العصيبة القاسية

وفى نهاية الأسبوع السادس من العلاج لم ينزل الطبيب كعادته إلى مائدة الإفطار فذهبت الخادم تبحث منه ولكنها ما لبثت أن عادت حاملة أسوأ الأنباء ، فقد سافر الطبيب على غرة بعد أن حزم أمتعته بيديه وحملها بنفسه إلى المحطة

فاندفع الدم إلى وجهى الأم والأخت وأخذت

كل واحدة تنظر إلى الأخرى نظرة الدهشة والحيرة والذهول ، فقد نال منهما هذا الحادث حتى كاد أن يحطم قلبيهما ، فهل كانت هذه هي نهاية أحلامهما المرجوة ؟

وأخيراً قالت الخادم : « لقد وجدت هذا الخطاب ، ثم ألقته بجانب طبق الأم »

ولكن الدنيا كلها كانت تضطرب وتهتز أمام عيني المسكينة الغاشيتين ، إلا أنها استجمعت قواها وتناولت الخطاب وفضته فانبجس الدمع من عينيها وجرى على خديها فلم تستطع أن تفسر تلك السطور التي جرى بها القلم في عجلة واضطراب ، فناولته ابنتها في صمت ، ولكن الفتاة لم تكن أقل من أمها ألماً وحسرة إلا أنها تظاهرت بالجلد وأخذت تقرأ :

« الدكتور بيرايرا له أن يخجل من نفسه . فان مغادرته كانت لضرورة ملحة ، وإن واجبه نحو نفسه في تلك الفرصة النادرة التي واتته كان يحتم عليه هذا السفر الفجائي . فقد عرض عليه أحد أصحاب الملايين من الأمريكيين مائتين وخمسين ألف ريال إذا ذهب إليه لمعالجة ابنه الذي فقد بصره » ثم مضى يشرح نوع ذلك المرض الذي أودى ببصر ذلك الابن فعزاه إلى مرض بسيط يصيب العصب البصري من السهل علاجه كما يتضح هذا من قول طبيب آخر في البرازيل . وعلى ذلك وجد نفسه ملوماً إذا هو ترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده .

وفضلا عن هذا فانه لم يبق له عمل مهم مع فرديناند ، فبمجرد أن تزول « اللزقة » المشدودة على الجبين يمكن فك بقية الأربطة التي على العينين ، وعندئذ يستطيع فرديناند أن يبصر إذا كان مقدراً له ذلك . ثم ختم خطابه باعادة تصريحه الأول وهو أن الشفاء قد يكون إلا إلى مدة معينة . !

فتنفست الأم والأخت الصعداء إذ لم ينعدم الأمل بعد في شفاء فرديناند . ثم ذهبتا إلى حجرة الشاب ليفضيا اليه بجملة الأمر ، فاستمع اليهما في هدوء وثبات ، وأخيراً قال : « لم يعد هناك شك في أن الرجل دجال . ولكني لن أحكم عليه بهذا حتى أعرف النتيجة ولم يبق بيني وبينها إلا بضعة أيام .

يا لها من أيام ثقيلة جافة أيام المحنة !

وأخيراً أخذت « اللزقة » تجف وتتساقط شيئاً فشيئاً ، ولكن « بيرايرا » كان قد حذرهم من فك الأربطة قبل أن تجف اللزقة كلها وتسقط عن الجبين .

وهكذا قضت تلك القلوب الثلاثة الحائرة الأيام الخمسة تعدها بالساعات والكل ينتظر ختام تلك القصة الدامية التي تعيد للمريض بصره وتدنيه من أعز ميراث للانسانية ، أو تطيح به بعيداً عن عالم النور والجمال للأبد .

فلما جاءت تلك الساعة ألفته حائراً متردداً ، فقد استولى عليه نوع من الذعر من ذلك المستقبل المجهول الذي يواجهه ، جعله يبعد يده عن الأربطة فكيف يستطيع أن يتحمل صدمة الإبصار لأول مرة فيرى عالم الناس العجيب ، أو كيف يقابل أسوأ الصدمات فيقف على تلك الحقيقة القاتلة : فقده بصره للأبد :

أما الأم والأخت فقد وقفتا بجانبه تشاهدان هذا التردد بقلوب واجفة وصبر مسلوب .

ثم ابتعد الابن بيده وقال : « لا ، إني لا أجرؤ على هذا . إني خائف ياأمي . آه ! ربما كان الأفضل لي ألا أنوء تحت هذه التجربة المخاطرة فقد كنت سعيداً

من قبل ، سعيداً على أى حال ، ولكن لو قدر لى ألا أبصر بعد هذا فلن أعرف السعادة إلى الأبد

فمدت الأم يدها ووضعتها على رأسه فى خفة وحنان فأخذها الابن بين يديه وقبلها ، ثم صاح وهو يمسك بها : إنك أنت يا أمى وكذلك أنت يا أختى اللتان قوضتا حياتى . كيف أستطيع أن أحدثكما عما فى نفسى الآن . ثم أخذ يتمتم فى صوت خافض كأنه يتحدث إلى نفسه : « هل تدركان بعض ما أنا فيه الآن ؟ إنكما لا تقدران ، وأنى لكما بهذا ؟ لقد سمعتكما تتحدثان عن الطيور والأزهار ، عن الألوان والصور ، عن الأطفال الصغار والشمس والقمر والسماء والبحر . آه ! ولكنى أستطيع أن أشم رائحة البحر وأسمع هدير أمواجه . إنى لا أخاف البحر قط ، ولكن فكري أيتها الأم ... » ثم عرته قشعريرة راجفة وهو جالس في مقعده ، ثم عاد يقول فى نغمته السابقة : « ولكن إن كان لا بد من احتمال هذه التجربة كما يجب على الرجل فانى أفضل أن أكون وحدى »

فصاحت الأم والأخت فى نفس واحد : « وحدك ! »

— ولم لا ؟ إن أفضل صلاة للإنسان هى عند ما يخلو إلى نفسه إذ يكون أقرب إلى ربه . لذلك أرى أن أكون وحيداً . لقد صليت منذ لحظة وهذا الإلهام هو الجواب . لقد قضى علىّ أن أكون وحيداً عند إجراء هذه التجربة ... أجل . أجل . الأفضل أن أفعل هذا لمواجهة تلك التجربة التى تمتحن عزمى وصبرى

وعبثاً حاولتا أن تثنياه عن عزمه فلم تجد دموعهما ولا توسلاتهما لديه شيئاً ، إذ أجابهما فى صوت المصر العنيد : « سأبقى وحيداً حتى أهيئ نفسى لمواجهة وجهيكما الحبيبين لأول مرة . يجب ألا تدخلا على حتى أبلغكما ذلك ، بل لا تحاولا أن تفتحا الباب . سأغلقه دونكما وعليكما أن تنتظرا إلى أن أدعوكما

فحاولت أمه أن تستعطفه ، ولكنه قاطعها قائلاً : « أتحبين أن أصغر فى عينى أمامك ؟ قد أصرخ أو أتوجع . لا أريد أن يطلع أحد حتى أحب الناس إلىّ على ضعفى . لا . سأكون وحيداً . إن ساعة اللقاء هذه لهى امتحان قاس لنا كلنا فلننته فيها على أى وجه ، فقد نحتاج إلى كل قوانا حالا ... »

ولما كان من عادتهما الخضوع لإرادته فقد تركاه كما أمرهما ثم تبعاه إلى الباب ، وأوصده دونهما ؛ ثم قال لهما وهو يدير المفتاح : « تذكرا ألا تدخلا على حتى أدعوكما »

ولما شعر بوحدته أخذ يفك الأربطة ولكن أصابعه كانت تضطرب ويداه تهتزان حتى أنه لم يستطع أن يحل اللفائف الأولى إلا بعد لأى

ولكن هذا الرجل الذى بقى صابراً على بلواه ربع قرن قد نفد صبره فى تلك اللحظة ، فأخذ يضرب رأسه فى أثاث الغرفة فى كفاح عنيف ، ويصرخ من شدة الألم كأنه طفل رضيع مع أنه احتمل مثل هذه التجارب من قبل في غير تشك ولا ألم . وأخيراً تمكن من انتزاع جميع الأربطة فصاح صيحة محتبسة مكبوتة !

إنه يبصر ! !

لقد شعر بأهداب عينيه الجامدة المخيفة تتحرك

إلى أعلى وإلى أسفل ؛ ولم يبق فى تلك الحقيقة الرائعة أدنى شك . لقد أبصر !

لم ير أول وهلة إلا سحابة شاحبة تتحرك فيها الأشباح الغامضة الداكنة ، ولكنه مالبث أن وضح بصره فرأى الأشياء على حقيقتها فى صورها وأحجامها ، ثم أخذ يجول فى الغرفة يهوم بيديه فى الفضاء ويحاول أن يبطش بكل العقبات التى كان يظنها تهدده أينما سار ثم ارتمى فى أحد المقاعد بجانب النافذة مرتجف النفس متزايل الأركان

لقد حدث ما كان يخشاه ، فقد استولى عليه نوع من الذعر شديد ، فأحس أن هناك دافعاً يدفع به إلى الباب ولكن ما الباب من بين تلك الأعاجيب والألغاز التى كانت تحوطه وتغمره ؟ ثم انقض عليه بيديه وأخذ يصيح منادياً أمه وأخته ، وربما كان مستعدا لأن ينقاد إلى ذلك الدافع ويسمو إلى كرامته وكبريائه لولا أنه شعر أن كل أعضائه قد التصقت بذلك المقعد الذى كان جالساً فيه ؛ وعلى ذلك لم يكن ليستطيع أن يأتى شيئاً إلا أن يجلس ويحملق وينصت إلى تدفق الدم فى عروقه وخفقات قلبه العالية المضطربة

كان اليوم لا يزال داكناً فالبحر والسماء لا يزالان غارقين فى هذا اللون الداكن الكئيب ، فلم يستطع أن يرى من تلك النافذة إلا ذلك الجزء من الشاطئ المثلث الشكل الذى تغطيه الرمال الرمادية الداكنة ، ثم رأى سفينة تمخر البحر وتمر أمام ناظره فعجب لمرآها وحار فى فهمها، أهى عصفور يرفرف فوق الماء ؟ ثم رأى أسراباً من الطيور تحلق فى السماء الغاشية فعرفها ولكنه لم يعرف ذلك الشىء الأبيض الطافى . لقد كانت لديه معرفة نظرية عن السفن ، ولكن تلك المعرفة لم تساعده على تمييزها فى عالم الحس . لقد كانت هذه الساعة الرهيبة تحمل فى ثناياها قصة عالم غريب لرجل حديث العهد به . ثم أخذت مخاوفه تتركه ، وأخذ هدوؤه يعاوده، ولكنه لم يشعر بالرغبة فى استدعاء أمه أو أخته . لقد كان مغموراً بجو من السعادة الحسية الدافئة ففتر عقله ولم يعد قادراً على التفكير حتى أنه لم يستطع أن يربط هذه الأحاسيس بأحاسيسه السابقة ، بل لم يستطع أن يصفها فيما بعد

ثم لاحت أمامه صحيفة عصفت بها إحدى الرياح الهوج فعجب لأمرها وظنها شبحاً لرجل قادم . ثم أخذ هدير الموج يدوى ثم يختفى فى رمال الشاطئ الرابضة فيصل إلى أذنيه قوياً واضحاً . ثم رأى زبد البحر تتقاذفه المياه وتلقى به إلى الشاطئ فعرف بذلك البحر . ولكن هل البحر هو سر ذلك الصوت المدوى والزبد الطافى أو هو يشتمل على تلك البقاع الفسيحة التى تقع على أبعاد عظيمة من البصر ثم تصطبغ بتلك الألوان الأرجوانية الزاهية حتى تغيب فى ذلك الأفق الغارق فى الضباب القاتم الحزين ؟

ثم رأى أمامه شبح غلام يمرق فى تلك الرمال ويختفى ، فارتاب فى فهمه . ثم عاوده خوفه واضطرابه

لم يكن يدرى شيئاً عن المرآة . ولم يرغب فى استشارة غيره ليعرف منه ذلك لأن بيرايرا قد أوصى أمه ألا تدعه ينظر إلى مرآة حتى يقف على أسرار عالم الحس الجديد ويتعلم تقدير المسافات وانكسار الضوء لأن بيرايرا كان يعرف كثيرين ممن فقدوا عقولهم عند أول عهدهم بالإبصار

ثم مضت ساعة . فاشتد القلق على الأم حتى دفع بها إلى الباب وأخذت تدق فى خفة فسمع

دقائها وعرف معناها وأدرك أن هـذا هو الباب . فحدجه بنظره إذ كان هذا أول عهده به . ثم أعادت القرع فأجابها من الداخل « لم أنته بعـد . إنى بخير وأستطيع الابصار . ولـكنه سمع أمه تصيح غاضبة « ولـكنك لم تنته بعد ... » فلما أحس أنها بعدت عن الباب هب واقفاً فى حذر ، ولـكنه لم يستطع أن يحتفظ بكيانه ، فهوى على يديه وركبتيه وأخذ يحبو على البساط واستولى عليـه نوع من الخوف جديد

ولـكن الخوف لم يلبث أن تركه ، وسرعان ما عاد إليه رشـده وهدوءه فهاله أمره وخشى على نفسه مغبـة ذلك التخاذل والاضطراب حتى خاف أن يؤدي به إلى فقد عقله بعد أن استعاد بصره . فنزل الهدوء على قلبـه كما تنزل قطرات الندى على الأزهار المتفتحة ، فارتجف عند شعوره التام بعظمة تلك المعجزة التي حدثت له ، فخفق قلبه ، وجف حلقه ، وأخذت أنفاسه تخرج من بين أسنانه كأنها صفير عال ، ورئتاه تتحشرجان فى صدره كأنه طائر مذبوح

ثم عادت أمه إلى القرع ، وعاد هو إلى جوابه الأول «لم أنته بعد» لقد سمعها تناديه باسمه فى شوق وحنان ، ولـكنه كان يعرف أن الوقت لم يحن بعد لمشاهدتها ، فلم يتجاسر أن يهدئ من هزة الفرح التى تثيرها فيه أمه المحبوبة لأول مرة . فعاد إلى التحديق فى البحر والسماء

قضى فى صحبة نفسه ساعتين حتى خف انفعال الخوف الذى شعر به عند ما أبصر لأول مرة ثم استلقى على الفراش بين الوسائد فى حالة من الهمود الذى يشل الارادة ثم عادت إليه أمه تناديه من جديد ولـكنه كان فى كل مرة يردها عنه فتنصاع لإرادته مرغمة حانقة . ثم اطمأن إلى نفسه وابتسم ابتسامة مشرقة عريضة ولـكن هذه الابتسامة لم تلبث أن انتزعت من وجهه انتزاعاً

ما سبب هذا ؟

لقد رفع يديه إلى عينيه ومسحهما فى خفة ورقة لأنهما كانتا لا تزالان تؤلمانه ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يحدق النظر فى تلك الأشياء التى أمامه ، ثم أقفل عينيه وفتحهما فلاح له أن البحر والسماء أقل زرقة ووضوحاً . ولم يعد يتبين حدود الأشـياء تماماً . هل يعاوده عماه من جديد ، ؟ إنه لم يعد يشك فى هذا فقد كان منذ برهة قادراً على تمييز أشكال الأشياء وأحجامها ، أما الآن فقد فقدت لونها وشكلها ولم تعد تبدو فى نظره إلا بقعاً غامضة على منبطح من الرمال ؛ ثم إنه كان يرى الأمواج الصاخبة ترتفع وتنخفض ثم يراها تثور وتزبد وتفور على الشاطئ ثم ترتد عنه إلى مكانها الأول — كان يرى كل هذا . أما الآن ...

ثم قبع فى مكانه فى هدوء وصمت يدير عينيه فى حيرة وقلق فى الغرفة . فأصبح يرى ورق الحائط والأبسطة وكذا الصور التى على الحائط والسقف وجميع أثاث الغرفة تختفى من عينيه ويلفها الظلام الداجى !

عندئذ تذكر ما كان الطبيب الايطالى قد أخبره به وهو أن عودة بصره قد تكون إلى مدة قصيرة ربما تكون بضع ساعات أو بضع دقائق . لقد نسى هذا فى غمرة الفرح التى غمرته أولاً ، أما الآن فان الحقيقة المرعبة المميتة تظلله كسحابة كثيفة قاتمة . فلم يعد يؤمل إلا فى الموت بعد أن شالت عنه أحلام المستقبل البهيج !

يجب أن يعود ثانية إلى حياة الظلام ! يجب أن يرجع إلى وادى الظلال العميق ! لم يعد له بعد هذا القبس الضئيل إلا الظلام السرمدى !

ولم يبق له بعد الكشف عن عجائب هذا العالم إلا ليل أشد قتاماً يغمره حتى الموت ! إذ كان يشعر وهو جالس يتلوى ويتألم أن نور عينيه يخبو وشيكا وشيكا !

ثم تفجرت أعماق ذلك القلب الكبير حتى تحطمت فأخذ يصب اللعنات على ذلك القدر الملعون الذى يسخر منه إذ لم يكد يذيقه طعم الحياة الهانئة حتى حرمه منها وقد نضجت وطاب أكلها !

فصاح وهو يتحسس طريقه إلى الباب فى ذلك الظلام الذى ألفه

ثم أدار المفتاح وفتح الباب على مصراعيه ومزّق بصوته المتألم المفجوع ذلك السكون الذى كان يخيم على المنزل ثم سقط على الأرض مغشياً عليه ...

فلما عاد إليه رشده ظن أنه قد انتقل من هذا العالم إلى عالم القبر ، لأنه لاح له أنه يستطيع أن يبصر مرة ثانية ، ولكن ليس كالمرة الأولى ؛ وأحس أن نوعاً من الضوء اللامع الناعم يملأ الجو ، ورأى وجه أمه التى كانت حانية عليه كأنه شبح مخيف !

أتستطيع أن ترانى يا عزيزى ؟

— نعم . فأنا ميت الآن . أستطيع أن أبصر من جديد . فدنت منه وقبلته ثم تمتمت قائلة : « عزيزى فرديناند ، إنك حى ، إنك لا تزال فى عالمنا العزيز . إنك .. لا . لا . يجب ألا تناقشنا بل عليك أن تصدق ما نقوله لك . كان ينبغى لنا أن نعدك لهذا ولكن كيف نتنبأ به ؟ !

— لقد ظننت أنى أبصر . لقد كان هذا حلماً ثم عاودنى العمى ثانية ! فصاحت أمه : لا . لا . إنك لا تزال حافظاً لبصرك

ثم أردفت أخته قائلة : وسيبقى لك مادمت حياً !

ثم استطردت الأم : نعم . ستكون قادراً على الإبصار بعد الآن . إن ما عاودك ليس العمى ! إلهى كيف أقنعك ! إن الشمس كانت على وشك المغيب والضوء يخبو دائماً عند كل غروب . إنه لم يكن إلا ما نسميه نحن الغروب أو الليل ! ولكن كان لابد من مضى بضع ساعات قبل أن يتحقق الشاب من هذا بنفسه .

نظمى خليل

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾